حول الجبهة الشعبية المتحدة

تؤدي التغييرات الخطيرة التي تجري في بلادنا منذ سنوات وعلى وجه الخصوص بعد حرب اكتوبر بنتائجها السياسية والاقتصادية الى نتيجة محددة هي ان اي قيود او تحفظات تكتيكية توضع على شعار الاطاحة الثورية بالطبقة الحاكمة وسلطتها فقدت مبررها فلم تعد الطبقة الحاكمة تلعب اي دور وطني في مواجهة الامبريالية بل ان سلطتها تقود عمليات الارتباط والصداقة والتحالف «والمواقف البناءة» مع هذه الامبريالية وتفرض على بلادنا من خلال ما تسميه بالانفتاح الشامل سياسيا واقتصاديا . علاقات شديدة الخطورة مع الامبريالية العالمية والرجعية العربية ، علاقات تؤدي بالحاح الى طرح مستقبل قضية الاستقلال الوطني على بساط البحث ، وهذه العلاقات لا تتناقض مع تطوير الاستقلال والسير به الى الامام فحسب بل تتناقض بحجمها ووزنها ودورها ومستقبلها مع مجرد الحفاظ على ما كان قد تم انجازه من استقلال نسبي ملىء بالثغرات . (اعادة العلاقات مع الولايات المتحدة الامريكية وتوسيعها واستقبال نيكسون ومع الرجعية واستقبال شاه ايران والقوانين الجمركية وقانون المال العام لحماية الاستثمارات الاجنبية والعداء للمعسكر الاشتراكي بكل سفور وتصفية القضية من الكيلو ١٠١ وجنيف .. الخ)

ولكن الاطاحة الثورية بالطبقة البرجوازية الحاكمة وسلطتها لا يمكن ان تكون هدفا مباشرا قريبا فالحركة الثورية الاشتراكية التي تتبنى هذا الهدف الثوري ما تزال وليدة من اطوار النشأة الاولى . فالاطاحة اذن شعار يتعلق بالمدى الاستراتيجي . انها الهدف الاستراتيجي الكبير امام قوى الثورة الاشتراكية . ومن الواضح ان هذه الاطاحة سوف تقوم بها الثورة الاشتراكية التي تقيم شكلا نوعيا متميزا لديكتاتورية البروليتاريا .

فالاطاحة باعتبارها هدفا استراتيجيا من الطبيعي ان تتطلب وتفترض وتشترط تحضيرا ثوريا طويلا ، اي نضالات طبقية طويلة معقدة تنطلق بالضرورة من اوضاع محددة وتستمر عبر مراحل ومتغيرات ومنارجحات .

وينقلنا هذا الى قضية (الجبهة الشعبية) باعتبار ان التحالف الطبقي الثوري سلاح اساسي لتحقيق الاهداف الثورية البعيدة والقريبة ، اي لتحقيق برنامجي الحد الاقصى والحد الادنى .

ويثير خط الجبهة المتحدة العديد من الاسئلة ، التي يمكن الاجابة عنها بعدد من الملاحظات الاساسية.

ليست الجبهة المتحدة سلاحا تكتيكيا اي انها ليست سلاحا لخوض معركة جزئية واحدة او عدد من المعارك الجزئية ، انها اتحاد وتحالف طبقي لتحقيق الاهداف المباشرة والبعيدة ، لخوض المعارك الجزئية المباشرة والمعارك الكبيرة الحاسمة ، معارك الثورة الاشتراكية لتحقيق برنامج الحد الادنى ولتحقيق برنامج الحد الاقصى ، ولكن (الجبهة المتحدة) تنشأ من ظروف تكتيكية محددة . هي اذن التقاء بين قوى سياسية تعبر عن طبقات اجتماعية مختلفة على اهداف مشتركة وبرغم ان هذا الالتقاء نسبي الا انه ليس التقاء عارضا ، بل التقاء يجب العمل على ثباته ورسوخه واستمراره . ولكن الواقع المتغير لا يصنع ضمانا مسبقا لاستمرار الجبهة الموحدة بنفس اوضاع نشأتها دون ان يؤدي ذلك الى حقيقة انفراط عقد هذه الجبهة وبالاخص في ظروف مصر الخاصة حيث ستبعد هذه الجبهة منذ البداية الطبقات الراسمالية الاستغلالية لتتكون من نواة اساسية ثابتة من الطبقة العاملة والفلاحية . اي من الطبقات الشعبية العاملة والكادحة والفقيرة التي تجمعها مصالح بعيدة المدى . ان الواقع المتغير يعني تطور الجبهة وانتقالها الى مراحل نضالية اعلى وتصديها لتحقيق اهداف جديدة . الامر الذي يؤدي الى اتساع الجبهة من زاوية مزيد من انخراط الطبقات الشعبية في النضالات الطبقية ومزيد من القوة والانتشار للاشكال السياسية التي تعبر عن هذه الطبقات (مثل الاحزاب والاتحادات والروابط والنوادي السياسية والجمعيات الادبية والفكرية .. الخ) من ناحية ، ويؤدي من ناحية اخرى الى امكانية انفصال عناصر واجزاء تتخلف عن اهداف الجبهة ، ولكن الامر الذي يجب التشديد عليه ان الجبهة المتحدة من ظروف بلادنا لا يمكن ان تتسع للطبقات البرجوازية الاستغلالية ولا يمكن ان تكون تكرار للتجربة الصينية (الكومنتانج وحلف الطبقات الاربع) اختلاف طبيعة الثورة في البلدين ، واذا كان هذا التشديد ردا على انحراف يميني فيجب الرد ايضا على الانحرافات اليسارية التي تذهب الى ان على قوى الثورة الاشتراكية ان تحافظ على نقائها البروليتاري وتغلق باب النضال على نفسها ولا تفكر من وجود اي طاقات نضالية ثورية لدى الطبقات الشعبية الاخرى . لقد دحض التاريخ الحي للثورات الاشتراكية بما لا تزيد عليه هذا الانحراف اليساري فهي لم تتحقق بنضال الباب المغلق على البروليتاريا وحدها في اي مرحلة من مراحلها سواء اثناء التحضير الطويل لهذه الثورات او بعد اقامة سلطتها الاشتراكية . انه واقع ان الطبقة العاملة بحكم مصالحها البعيدة والمباشرة وبحكم رسالتها التاريخية هي الطبقة الثورية حتى النهاية لا يمكن ان يتناقض مع تفكيرها من حلفائها اي من يناضلون معها وتحت قيادتها ، لانها تعترف بالطاقات النضالية للطبقات الشعبية الاخرى برغم ترددها وتذبذبها .. الخ . فالعمال لا يقولون للفلاحين مثلا سوف نناضل وحدنا واذهبوا انتم الى اعدائنا البرجوازيين. بل يقولون: ناضلوا معنا ضد الاعداء المشتركين بقدر طاقاتكم

على النضال . ان التحضير الثوري للاطاحة وللثورة الاشتراكية يتطلب عملا دائبا على اضعاف العدو الطبقي وهذا الامر يتطلب ايقاظ الطبقات الفقيرة المقهورة وحثها على النضال فلا يمكن ان يكون موقف الثوريين هو هدهدة هذه الطبقات من اجل مزيد من الاستغراق في النوم ان اي ثوري عاقل يرحب بنضال هذه الطبقات فاذا ناضلت فلا يمكن الا ان يضع هذا النضال في اعتباره . فهل من الخير ان تناضل هذه الطبقات منفردة ؟ معنى هذا باختصار ان تفقد الطبقة العاملة قدرتها على التاثير الثوري على هذه الطبقات من خلال النضال المشترك وان تتركها بالتالي فريسة لتاثير العدو الطبقي المشترك الذي سوف يرحب بالطبع بتعادي الطبقات الشعبية وتصادم مواقفها ونضالاتها ...

وبالرغم ان الجبهة المتحدة (او التحالف الطبقي الثوري) تتكون من الطبقة العاملة والطبقات الفلاحية الشعبية (اي الفلاح المتوسط . وهو برجوازي صغير فنازل) والاجزاء الاخرى من البرجوازية الصغيرة في المدن والارياف برغم انها تتكون من هذه الطبقات الشعبية وتستبعد الطبقات الراسمالية الاستغلالية فانها جبهة وحدة وصراع ، فحزب الطبقة العاملة برغم اشتراكه مع بقية القوى السياسية في الجبهة في برنامج مشترك فانه يتميز باهدافه الاستراتيجية التي لا تتفق معه هذه القوى عليها وبالاخص في المراحل النضالية المبكرة وهو يتميز عنها ايضا بايديولوجية الاشتراكية التي تتناقض جذريا مع اشكال الايديولوجية البرجوازية التي تظل بقية القوى السياسية في الجبهة المتحدة داخل دائرتها وحزب الطبقة العاملة لا يمكن ان ينظر الى تحقيق البرنامج المشترك باعتباره نهاية المطاف بل يركز على الدعاية لاهدافه الاستراتيجية ويركز على شن نضال لا هوادة فيه ضد الايديولوجية البرجوازية لدى الطبقات والقوى السياسية التي تجمعها الجبهة المتحدة . ومن البديهي ان حزب الطبقة العاملة يعمل على ان تقود الطبقة العاملة وحزبها هذه الجبهة المتحدة ، وبدون هذه القيادة فان نضال الجبهة يظل مزعزعا وبالاخص انها لا يمكن ان تحقق الاشتراكية او تتجه اليها . ولكن هذه القيادة ليست شرطا مسبقا يصنعه حزب الطبقة العاملة لكل عمل دؤوب يقوم للوصول اليها .

ومن الواضح ان الجبهة المتحدة التي يجب العمل على خلقها من الطبقات الشعبية بالفة الذكر لا تحتم بالضرورة التحالف مع هذا الشكل السياسي او ذلك بالاستناد الى زعمه تمثيل احدى تلك الطبقات او اقسامها منها فالقضية هي الى اي مدى يمثل الشكل السياسي مصالح تلك الطبقة الشعبية والى اي مدى يظل امينا ومخلصا في تمثيلها فالموقف من الاحزاب والاشكال السياسية لا يتحدد على اساس ادعاءاتها ومزاعمها بل على اساس واقعها الفعلي كما يفهمه الثوريون .

وعلى سبيل المثال فان انتقال حزب نشأ فلاحيا الى موقف اصبح يتناقض مع مصالح الفلاحين برغم ادعائه الاستمرار في تمثيلها لن يعني (قضية الارتباط) مع الفلاحين بل مع هذا الحزب المحدد الذي اصبح يخونهم . ومن الطبيعي ان التطور الحي الفعلي لاوضاع مثل هذه الجبهة سوف يرسم في كل لحظة نضالية خريطة سياسية تفصيلية معقدة بالنسبة للمواقف التكتيكية التي يجب اتخاذها .

والتركيز على شعار (الجبهة الشعبية) اليوم لا يعني بحال الانتقال من شعار تكتيكي الى اخر بل هو تركيز على توضيح اهمية هذه الاداة . التوريه ودعاية تهدف الى ابرازها واهتمام بتدعيم اشكالها

الجنينية واهتمام بأبراز الاسس الثورية لجبهة متحدة (مع من ــ ضد من ــ ولتحقيق اية اهداف ؟) انه تركيز على ضرورة الشروع في عملية اوسع نطاقا للدعاية التي تبرر اسس هذه الجبهة وتؤكد على ضرورتها ، ودعوة للقوى الثورية التي تنخرط في الحركة الوطنية الديمقراطية الى تعزيز ترابطها في ممارسة جنينية لقضية التحالف التي لا تتناقض مع الصراع العسكري . ومن الخطأ الاعتقاد ان شعار الجبهة الشعبية تعني الحديث عن سلطة الجبهة الشعبية في المدى القريب اي ضمن برنامج للحد الادنى اي ضمن ما يمكن تحقيقه من نطاق الراسمالية بل يجب التمييز بوضوح بين برنامج الحد الاقصى اي الثورة الاشتراكية وما يمكن تحقيقه قبل الوصول للاشتراكية في بلادنا بهذه الظروف المحددة التي تكتنفها .

ان اقصى ما يمكن ان تحققه الجبهة المتحدة بطبقاتها الشعبية قبل الاطاحة الثورية بالطبقة الراسمالية الاستغلالية الكبيرة ونظامها الاجتماعي هو برنامج الحد الادنى مع استبعاد فكرتي التفاؤل والتشاؤم يمكن الحديث عن عدم الاستحالة النظرية لتحقيق عدد من الاهداف المترابطة مثل حق تنظيم الاحزاب الشعبية والوطنية وعدد من الحقوق والحريات الديمقراطية والمطالب الاقتصادية الديمقراطية للطبقة العاملة وبقية الطبقات الشعبية فمن غير المستحيل نظريا ايضا الوصول الى مجلس نيابي يكفل له الدستور حقوقا اساسية تضمن له الفاعلية الحقيقية وتنقله الى وضع من شكل الحكم يوجه ضربة الى النظام الرئاسي وعدم الاستحالة النظرية لتحقيق هذه الاشياء لا يعني سهولة تحقيقها ولا حتمية تحقيقها بل يعني فقط النضال من اجل ذلك واضعين في الاعتبار استماتة السلطة البرجوازية في الحفاظ على ديكتاتوريتها المطلقة : اي ان عدم الاستحالة النظرية يصطدم بالاعتبارات العملية الموضوعية وفي ان يحول ذلك دون النضال من اجل تحقيق هذه الاهداف ويمكن لهذا النضال ان يحقق بعض هذه الاهداف دون ان يحقق بعضها الاخر وفي كل الاحوال فان الحقوق والحريات الديمقراطية تظل في ظل الراسمالية ناقصة مبتورة مشوهة وفي كل الاحوال ايضا فان الانتقال الى الثورة الاشتراكية لا يشترط بالضرورة تحقيق هذه الاهداف جميعا . وعلى سبيل المثال ففي كل تجارب الثورة الاشتراكية تقريبا ظلت الاحزاب الشيوعية سرية حتى اللحظة الاخيرة اي حتى لحظة الثورة الاشتراكية ذاتها ، اي ان قوى الثورة الاشتراكية تركز على ان تحسن حيويتها وتعبىء نفسها في الواقع الفعلي سواء نجحت في انتزاع شرعيتها او لم تنجح ولا يعني فشلها في ذلك فشلها الحتمي في تحقيق الثورة الاشتراكية . والمقياس الحاسم هو ما تحقق من الواقع الفعلي وما لم يتحقق وليس اعتراف او عدم اعتراف الطبقة الحاكمة به ، وما يجب ان يكون واضحا هو ان النضال من اجل تحقيق هذه المطالب والاهداف وانتزاعها سوف يواجه دائما بالقمع ولا يجب التهويل على اوهام (العبور الديمقراطي) وما شابه ذلك . ومن الضروري ان يكون واضحا ما هو مستحيل (نظريا وعمليا) فطرح اي اهداف مستحيلة نظريا وعمليا ضمن برنامج الحد الادنى يؤدي الى فقدان الاتجاه وترويج الاوهام . ومن ذلك الحديث عن سلطة للجبهة الشعبية دون الاطاحة بالبرجوازية الكبيرة الحاكمة وسلطتها ، فالاطاحة القادمة في بلادنا تعني الاطاحة بالبرجوازية الحاكمة وحلفائها وسلطتها المشتركة واقامة شكل من اشكال ديكتاتورية البروليتاريا اي الاشتراكية ومن العبث الحديث عن سلطة للجبهة الشعبية تقوم بجوار (والى جانب) السلطة